مجلة دراسات بيت المقدس، 2018، 18(1): 57-70
DOI: 10.31456/beytulmakdis.382311

بريطانيا وتهويد مدينة بيت المقدس حتى عام 1948

نظام العباسي*

ملخص: شكلت مدينة بيت المقدس محور اهتمام سياسات الدول العظمى وعلى رأسها بريطانيا حتى قبل قيام الدولة الصهيونية على أرض بيت المقدس عام 1948. كان لبريطانيا دور محوري وقيادي في تحالفها مع المشروع الاستيطاني الصهيوني لأرض بيت المقدس– ودرّتها مدينتها المقدسة، انطلاقا من أفكار ومفاهيم ثقافية وروحية وسياسية. خلال القرن التاسع عشر، حيث ارتدت القوى الاستعمارية الأوربية أقنعة دينية وأخلاقية/ ثقافية لتحقيق مجمل توجهاتها السياسية للسيطرة على بيت المقدس، اندفعت بريطانيا لتتحالف مع حركة الاستعمار الاستيطاني اليهودي، وذلك انطلاقا من مبادئ وأفكار كانت راسخة في وجدانهم الانجليكاني (البروتستانتي)، الذي عرف بـ: "الصهيونية المسيحية". وقد تم تجسيد هذا التحالف على أرض الواقع قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى بمنح بريطانيا وعد بلفور المشهور عام 1917، والقاضي بإقامة وطن قومي لليهود في بيت المقدس.

بناء على ما تقدم، ستعرض هذه الدراسة بإيجاز لموقع بيت المقدس في التراث الثقافي البريطاني (الصهيونية المسيحية)، وتناقش تهويد مدينة بيت المقدس أثناء فترة احتلال بريطانيا لبيت المقدس (1918–1948) بمباركة دولية، وكيف تبلور ذلك في سياسة الاحتلال البريطاني لها على أرض الواقع.

الكلمات المفتاحية: تهويد، الانتداب البريطاني، الصهيونية المسيحية، الصهيونية، بريطانيا، القدس.

Britain and Judaising the city of Islamicjerusalem until 1948

ABSTRACT: *The city of Islamicjerusalem has been at the core of interest of the great powers' policies, namely Britain even prior to the establishment of the Zionist state in Palestinian land in 1948. Britain had a central and leading role in its alliance with the Zionist settlement project in Palestine, and its heart, the Holy City of Jerusalem, on the basis of cultural, spiritual and political ideas and concepts. During the nineteenth century, when European colonial powers used religious and moral/cultural disguises to carry out most of their political aims for the sake of controlling the Holy land, Britain rushed to ally itself with the Jewish colonial settlement movement on the basis of the protestant principles and ideas, which were rooted in their conscience and known as "Christian Zionism". This alliance was materialized on the ground before the end of WWI with Britain's granting of the infamous Balfour Declaration in 1917, which established a national homeland for the Jews in Palestine. Based on the above, this study will briefly present the position of Jerusalem in the British cultural heritage (Christian Zionism) and discuss the Judaisation of the city of Jerusalem during the British occupation of Jerusalem (1918-1948) with international blessing and how this crystallized in the policy of the British occupation on the ground.*

KEYWORDS: *Judaisation, British Mandate, Zionism, Christian Zionism, Britain, Jerusalem.*

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة قطر، nesam.alabbasi@qu.edu.qa

مقدّمة

شكلت مدينة بيت المقدس خلال الفترة موضوع البحث، الصورة الحية والفاعلة في تاريخ بيت المقدس الحديث والمعاصر، وبخاصة فيما تمثله الأطماع البريطانية للسيطرة عليها وتحالفها مع الحركة الصهيونية بهدف إقامة وطن قومي لليهود في بيت المقدس. وتعود الرغبة البريطانية في السيطرة على بيت المقدس وإعادة اليهود إليها تاريخيا إلى حركة الإصلاح الديني في أوروبا، حيث كانت متلازمة ومتفاعلة في بعدها الديني والأخلاقي (الذي شكل في النهاية تراثا روحيا وثقافيا) مع الحنين اليهودي للعودة إلى بيت المقدس – وهو ما عرف اصطلاحا بـ "الصهيونية المسيحية".

فخلال القرن التاسع عشر وحين ارتدت القوى الاستعمارية الأوروبية أقنعة دينية وأخلاقية وثقافية لتحقيق مجمل توجهاتها السياسية، انطلقت بريطانيا لتتحالف مع حركة النشاط اليهودي المتمثل في حركة الاستعمار الاستيطاني اليهودي لبيت المقدس، ولتتحدا معا في الهدف وهو إقامة دولة يهودية في بيت المقدس تحت الحماية البريطانية. وجاءت المباركة الدولية لذلك، من خلال قرار عصبة الأمم عام 1922م القاضي بانتداب بريطانيا على أرض بيت المقدس شريطة تنفيذها ما جاء في وعد بلفور من إقامة وطن قومي لليهود فيها.

وهكذا يرى الباحث ضرورة تناول أهمية بيت المقدس وموقعه في التراث الثقافي البريطاني (أو الصهيونية المسيحية)، لما لذلك من أثر في التحالف البريطاني–الصهيوني، الذي تجسد نظريا خلال الحرب العالمية الأولى بوعد بلفور (2 نوفمبر 1917)، وعمليا خلال الفترة اللاحقة بما فيها تلك التي احتلت خلالها بريطانيا بيت المقدس (1918-1948)، وبمباركة دولية.

الصهيونية المسيحية

المقصود بالصهيونية المسيحية، تلك القوى الاجتماعية السياسية التي برزت بداية في المحيط الديني للقوى البروتستانتية منذ حركة الإصلاح الديني (القرن السادس عشر)، وتطورت لاحقا بحيث أصبحت مُثُلها وأفكارها راسختين في الثقافة الغربية.[1] ونستطيع فهم دور الصهيونية المسيحية وموقفها من ضرورة "عودة اليهود" حسب زعمهم إلى بيت المقدس "أرض الميعاد" وإقامة وطن قومي لهم فيها، من خلال توضيحنا لدور حركة الإصلاح الديني الأوربية في تفهم ماضي اليهود وحاضرهم.

استنادا إلى مبدأ الحقيقة الدينية على أساس الفهم الشخصي دون قيود على التفسيرات التوراتية الذي رسخته حركة الإصلاح الديني في أوروبا، حيث تم كما يقال "إعادة اكتشاف العهد القديم"، مما عزز النزعة لليهود في حركة النهضة البروتستانتية. والعهد القديم يشكل كما هو معلوم، ليس فقط الجزء الأكبر من الانجيل، بل ويعرف بأنه التوراة اليهودية.[2] ولا يزال الكثيرون من غلاة البروتستانت

يلجأون إلى التفسير الحرفي للعهد القديم، وينظرون لليهود الحاليين على أنهم العبرانيين القدامى، وأن "دولة اسرائيل هي تحقيق للنبوءات التي وردت في العهد القديم".[3]

ويلحظ المسيري أن الفكر الصهيوني بدأ في الظهور بين المسيحيين في البلاد البروتستانتية بوجه عام وخاصة في بريطانيا، فالفكر الصهيوني يرى "أن خلاص العالم لا يتم إلّا بالاستيلاء على بيت المقدس واسترجاع اليهود ...أي عودتهم لها وتنصيرهم حتى يتم الإعداد لعودة المسيح المخلّص".[4] ولذا لا غرابة في أن يعتبر بن غوريون الكتاب المقدس على أنه "صك اليهود المقدس لملكية القدس (بيت المقدس) الذي يرجع تاريخه إلى 3500 عام".[5]

ومع الزمن ، بدأ ما يمكننا أن نطلق عليه "بالثقافة العبرية" يتفاعل مع الثقافة الأوروبية، خاصة بعد ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الأوروبية، بحيث أصبح ما جاء في العهد القديم عن معتقدات وقوانين وأرض العبرانيين أمورا مألوفة في الفكر الغربي، وأصبح الربط بين الأرض المقدسة وشعب الله المختار "يرد في الطقوس والشعائر البروتستانتية، وصار العهد القديم مصدرا للمعلومات التاريخية العامة، رغم أن حب المصلحين الأوائل لـ "شعب الله المختار" لم يكن ناجما عن قلقهم على اليهود، بل لدورهم المرسوم لهم في "خطة الله كما أوصى بها وعده لهم، وبقي هدفهم النهائي ارتداد اليهود إلى المسيحية".[6]

في بريطانيا البيوريتانية، تطورت هذه النظرة في القرن السابع عشر، حيث وصل بعض البيوريتانيين[7] إلى مرحلة اعتناق اليهودية. وقد تجسدت مجمل هذه الاتجاهات آنذاك وخلال الفترة اللاحقة ببرامج عمل، تهدف إلى "إعادة اليهود إلى (بيت المقدس) فلسطين" تحقيقا لنبوءات توراتية وغيرها من القناعات التي أفرزتها مجمل التطورات السياسية والاقتصادية اللاحقة.[8]

لا غرابة في هذا الإطار حين نجد أن البيورتيانيين في بريطانيا كانوا أول جماعة تعبر عن تلك القناعة من خلال الاقتراحات التي قدموها للحكومات البريطانية المتعاقبة، لكي تنفذ عودة اليهود إلى بيت المقدس، كان أولها عام 1649 "ليكن شعب انجلترا وسكان الأراضي المنخفضة أول من يحمل أبناء وبنات اسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم ابراهيم واسحق ويعقوب، لتكون إرثهم الأبدي".[9]

نمت هذه الأفكار وتطورت، مع التطور السياسي والاقتصادي في أوروبا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، إلى درجة أنها أصبحت جزءا راسخا في الثقافة الأوروبية، وتسنى تحقيقها خلال عهد الانتداب البريطاني على بيت المقدس. إن نظرة سريعة إلى سياسة بريطانيا تجاه بيت المقدس خلال القرن التاسع عشر تؤكد بشكل واضح، بأن مسألة "إعادة اليهود" في سبيل تحقيق مناشدة عام 1649 بقيت حية وفاعلة، بل وأخذت خطواتها العملية في التبلور بشكل ميداني خلال الفترات اللاحقة.

عبرت بريطانيا منذ مطلع القرن التاسع عشر ومن خلال إفشالها لحصار نابليون لعكا عام 1799، ودعمها في إنهاء سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام (مؤتمر لندن)1840،[10] عن رفضها لأية قوة ترغب في السيطرة على بيت المقدس. وفي تنافسها مع القوى الأوروبية الكبرى الطامعة بالسيطرة على بيت المقدس، لعبت بالورقة اليهودية حتى قبل تبلور الحركة الصهيونية السياسية في مؤتمر بال 1897، لكي تحقق أهدافها.[11]

وتكشف المراسلات بين وزارة الخارجية البريطانية، وقنصل بريطانيا في مدينة بيت المقدس[12] عن التوجه البريطاني الذي أراد "وضع اليهود تحت الحماية البريطانية، والضغط على السلطة للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين (بيت المقدس)".[13] كما أصدرت وزارة الخارجية البريطانية توجيهاتها إلى السفير البريطاني في استانبول لكي يروج لفكرة هجرة اليهود إلى بيت المقدس، ولإقامة دولة يهودية فيها، بذريعة : *" فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان، فسيكون في هذا حائل بين محمد علي ومن يخلفه، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل"*،[14] كما " *سيكون مفيدا جدا للسلطان إذا ما أغرى اليهود المبعثرين في أوروبا وافريقيا بالذهاب والتوطن في فلسطين(بيت المقدس)... لكن اليهود يطلبون نوعا من الأمان الحقيقي الملموس، ولذلك فإنني أقترح أن يكون في استطاعتهم الاعتماد على حماية بريطانيا، وأن يسمح لهم بأن ينقلوا إلى الباب العالي شكواهم عن طريق السلطات البريطانية*".[15]

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ازدادت قوة التغلغل والتنافس الأوروبي على بيت المقدس، وبدأت الخطوات العملية للاستيطان فيها تأخذ طابعا عمليا تحت شعارات مختلفة، أبرزها "الحرب الصليبية المسالمة" ، و "إعادة اليهود Restoration of the Jews"،[16] التي تمخض عنها في نهاية المطاف الاندفاع نحو الاستيطان السلمي كطريق وحيد للسيطرة على بيت المقدس – لم ينجح منه إلا مشروعان، الأول: مشروع مستوطنات الهيكل المعروفة باسم Schwäbische Templer التي بلغ عددها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سبع مستوطنات، لم يزد عدد قاطنيها عن الألفي نسمة من الألمان،[17] والثاني: تمثل في استيطان خلفائهم الأكثر نجاحا، وهم المستوطنون اليهود الذين حاولوا التعلم من أخطاء الهيكليين.

أما الحقيقة المهمة التي لا بد من ذكرها فهي أن هؤلاء المستوطنين المستعمرين وأيا كانت أهدافهم واتجاهاتهم أو جنسياتهم، لم يساورهم أي قلق حول سكان بيت المقدس الأصليين، وكانوا يلجأون لتبرير عدوانيتهم إلى مقولة الأرض الخالية من السكان، أو يطرحون الحلول الجاهزة الأخرى، كرغبة السكان الأصليين– بل وحتى امتنانهم لتهجيرهم المستقبلي![18].

الاستيطان اليهودي في مدينة بيت المقدس

نعمت الطائفة اليهودية في بيت المقدس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بأوضاع سياسية مريحة، خاصة قبل بداية موجات الهجرة اليهودية المنظمة إلى بيت المقدس، حيث بلغ عدد أبناء الطائفة اليهودية فيها في مطلع ثمانينيات القرن الماضي 24 ألف نسمة[19] عاشت غالبيتهم الساحقة في المدن المقدسة كمدينة بيت المقدس، وصفد، وطبريا، إضافة الى أعداد قليلة منهم في الخليل ونابلس.[20]

أما المهاجرون اليهود إلى فلسطين قبل ثمانينيَّات القرن الماضي، فكانوا يأتون عادة للعيش قرب الأماكن المقدسة لإقامة الصلوات ودراسة التلمود – تسريعا لقدوم السيد المسيح. لقد نمّت المطامع الأوروبية في بيت المقدس وزيادة الاتصال بها، وتم إطلاق ما عرف بـ "التعلق اليهودي بصهيون"، كما تم تعزيز اهتمام الأوروبيين اليهود بالبلاد المقدسة، مما قاد إلى دعم وتحسين وضع يهود بيت المقدس (اليشوف القديم)[21] والذي أفضى إلى تحولات جذرية خلال الفترة اللاحقة، تم خلالها دعم اليشوف اليهودي ليشكل الحاضنة والقاعدة الرئيسية المعتمد عليها ميدانيا لاستيعاب مهاجرين جدد.

وكانت البداية من خلال بعض المؤسسات والجمعيات التي عنيت بذلك، كصندوق اكتشاف فلسطين البريطاني (British–Palestinian Exploration Fund) والجمعية الألمانية الفلسطينية (Deutsch-Palästina Verein) وغيرها من المؤسسات والجمعيات الأوربية، سواء جاءت تحت الطابع الاستكشافي أو الاستيطاني أو التبشيري.. الخ.[22]

لقد أخذت مثل هذه المؤسسات وغيرها مثل جمعية الاليانس الفرنسية، وعائلتي روتشلد ومونتيفوري تعد لنشاط استيطاني يهودي أكثر تنظيما، وبدايةً عن طريق زيادة نسبة ما عرف (بالحلوكاه) وهي التبرعات التي كانت تجمع لتدفع لليشوف اليهودي، الذي عاش 85% من يهود فلسطين في نهاية القرن الماضي معتمدين عليها.[23]

قادت هذه التطورات إلى زيادة عدد أفراد الجالية اليهودية وبشكل خاص في مدينة بيت المقدس، حيث تم البدء بإنشاء أحياء جديدة خارج أسوارها. وجاءت المبادرة الأولى في هذا الصدد عام 1859، حيث تمكن مونتيفوري[24] شراء قطعة صغيرة من الأرض إلى الغرب من بوابة يافا، بحجة بناء مستشفى عليها، وقد عزز السلطان العثماني ذلك بفرمان خاص. إلا أن مونتيفوري غير خطته بعد ذلك، وأقام مساكن شعبية عليها، بعد تدخل من السفير البريطاني في استنبول. لقد شكل هذا الحي نواة ما يطلق عليه الآن ب "القدس الجديدة"، كما تتابعت إقامة الأحياء اليهودية في هذه المنطقة خلال السنوات اللاحقة، فأقيمت ضاحية "مشكانوت شعنانية" سنة 1860، وتأسس عدد من الأحياء اليهودية

الأخرى بين أعوام 1875 – 1787 على طريق مدينة بيت المقدس– يافا، ووصل البناء اليهودي في منطقة طريق يافا حتى نهاية القرن التاسع عشر إلى "محانية يهودا".[25]

مدينة بيت المقدس والحرب العالمية الأولى

وصل البناء اليهودي في مدينة بيت المقدس مع اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى مدخل "روميما" غربا، وحي بوخارين والشيخ جراح شمالا، أما في الجهتين الشرقية والجنوبية فقد كان الامتداد المعماري قليلا مقارنة مع غرب وشمال المدينة المقدسة، ولأسباب طبوغرافية قبل كل شيء.[26]

نستطيع القول، بناءً على ما تقدم، أن المرحلة الأولى من المخططات الصهيونية لمحاصرة مدينة بيت المقدس قد أنجزت قبل دخول القوات البريطانية إليها مطلع ديسمبر من عام 1917، لكي تبدأ المرحلة الثانية مع دخول قوات الجنرال اللنبي[27] قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى. قام اللنبي حتى قبيل توقف القتال في الحرب العالمية الأولى، باستدعاء "ماكلين" مهندس مدينة الاسكندرية، وأسند إليه مهمة وضع الخطة الهيكلية الأولى لمدينة بيت المقدس، التي تم إقرارها عام 1918. قسمت خطة ماكلين مدينة بيت المقدس إلى أربع مناطق هي: المدينة القديمة داخل السور، ومدينة بيت المقدس الشرقية (العربية)، والمناطق المحيطة بالبلدة القديمة، ومدينة بيت المقدس الغربية (اليهودية).[28]

لقد قرر الحاكم العسكري البريطاني ابتداء، منع البناء منعا باتا في المناطق المحيطة بالبلدة القديمة، ووضعت قيودا صارمة على البناء شرق مدينة بيت المقدس (العربية) مقابل اعتبار بيت المقدس الغربية (اليهودية) منطقة تطوير. وهكذا أتت هذه الخطة لتسهم في تنفيذ المرحلة الثانية من المخطط الصهيوني الذي يهدف إلى: تعزيز الوجود اليهودي في مدينة بيت المقدس، وأحكام تطويقها استيطانيا، ومحاولة السيطرة على الحكم البلدي فيها كخطوة مسبقة نحو السيطرة الديموغرافية الكاملة عليها، بعد أن تمت السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية عليها أيضا.[29]

سياسة الانتداب تجاه مدينة بيت المقدس حتى 1948

دخل بيت المقدس ومدينته بشكل خاص، مرحلة جديدة من مراحل تهويدها خلال عهد الانتداب البريطاني تمهيدا للسيطرة اليهودية الكاملة عليها – تجسيدا لوعد بلفور الصادر في 2 نوفمبر عام 1917 والقاضي بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في بيت المقدس.[30] وتنفيذا لهذا المخطط عملت بريطانيا باتجاهين:

أ. الأول

يتمثل في سياسة الإدارة العسكرية والمدنية لتكريس تنفيذ هذا الوعد كأمر واقع في بيت المقدس، من خلال عدد من الإجراءات ، بما فيها مثلا، فتح أبواب بيت المقدس للمهاجرين اليهود، وتسهيل استيلاء الصهاينة على أراضيها، وسماحها للجنود اليهود والمسرحين من جيش اللنبي بالمجيء إليها محتفظين بأسلحتهم الخفيفة، وسماحها للصهاينة بإنشاء نواد وجمعيات ومؤسسات شبه عسكرية كالمكابي، وبيتار، وحماة اسرائيل وغيرها، كما وافقت على نقل مقر الجمعية الصهيونية إلى مدينة بيت المقدس.[31] أما هربرت صموئيل،[32] أول حاكم بريطاني للإدارة المدنية البريطانية في بيت المقدس منذ عام 1920، وهو الصهيوني المعروف، فقد عمل على تنظيم أمورها على أسس قانونية تسمح بالسيطرة الصهيونية عليها ، فقام بإسناد رئاسة الدوائر والوظائف العليا إلى شخصيات انجليزية وصهيونية، بحيث جاء تشكيل رؤساء دوائر الهجرة والسفر والأراضي من اليهود الانجليز، وأنشأ دائرة خاصة باسم دائرة النيابات العامة من اختصاصها سن القوانين ووضع الأنظمة، وعينت نورمان بينتوفش Norman Bentwish (وهو يهودي بريطاني) رئيسا لهذه الدائرة ومستشارا قضائيا لحكومة الانتداب.[33].

ب. الثاني

تمثل في إعطاء التحالف الانجليزي–الصهيوني شرعية دولية، وذلك من خلال تكليف بريطانيا بالانتداب على بيت المقدس من قبل عصبة الأمم، تنفيذا للمادة 22 من ميثاق الأمم، الذي يشترط على بريطانيا في انتدابها عليها، تنفيذ وعد بلفور، وقد تم ذلك بتاريخ 1922/7/24.[34] كان من نتائج هذه السياسة على الصعيد الديمغرافي، أن ارتفع عدد اليهود في بيت المقدس من حوالي 56 ألفا عام 1918 إلى حوالي 650 ألفا عام 1947، شكل يهود بيت المقدس من بينهم حوالي 34 ألفا عام 1918 وارتفع إلى حوالي مائة ألف عام 1946م.[35]

لا غرابة في مثل هذه الحال، أن تشكل مدينة بيت المقدس ومن أجلها محورا رئيسيا (ولأسباب متعددة) للاصطراع بين العرب من جهة، واليهود والانجليز من الجهة المقابلة خلال عهد الانتداب: لقد أثارت الاعتداءات المتزايدة للمهاجرين اليهود إلى بيت المقدس، وسياسة بريطانيا الموالية للصهيونية ورفضها الاستجابة للمطالب العربية، خوف العرب على مستقبلهم ووطنهم. قاد هذا الأمر إلى قيام الشعب الفلسطيني بالاحتجاج الذي وصل إلى مرحلة الانتفاض العنيف ابتداء من عام 1920 وحتى نهاية الانتداب، نذكر منها هبَّة 1920 التي تعود عوامل قيامها المباشرة إلى النزاع بين اليهود والمسلمين حول الأماكن المقدسة بمدينة بيت المقدس بشكل رئيسي.[36]

لقد شكلت مدينة بيت المقدس كعاصمة لبيت المقدس، ومقر لحكومة الانتداب بوجه عام، مركزا لمقاومة تهويد بيت المقدس. وكان الانجليز كما هو معلوم يحاولون وبعد كل هبة وطنية فلسطينية الوصول إلى تسوية بين العرب واليهود – على حساب العرب بالطبع، قاومها الفلسطينيون، ولعل هبة 1929 في فلسطين والمعروفة باسم أحداث البراق الشريف، خير مثال على ذلك، حيث أرسلت بريطانيا لجنة تحقيق عرفت باسم (لجنة شو)، أثبتت في النهاية حق المسلمين الكامل في حائط البراق الشريف.[37]

أما خلال الثورة العربية الكبرى 1936-1939،[38] حيث أرسلت بريطانيا لجنة اللورد بيل (Peel) لتحري أسباب ثورة العرب، فقد اقترحت تقسيم بيت المقدس بين العرب واليهود، وأوصت بإقامة انتداب دائم للحكومة البريطانية على الأماكن المقدسة في بيت المقدس، في القسم الممتد من شمالي مدينة بيت المقدس حتى جنوب بيت لحم ضاما الناصرة وبحيرة طبريا.[39] وعلى الرغم من فشل تنفيذ هذه المخططات نتيجة المقاومة الفلسطينية، إلا أن المخططات الصهيونية العاملة على تهويد بيت المقدس ، ومدينته بشكل خاص، استمرت قدما خلال الحرب العالمية الثانية، وتخللتها الأعمال الإرهابية للمنظمات الصهيونية المسلحة، كان أبرزها نسف مقر حكومة الانتداب في مدينة بيت المقدس في 22 تموز 1946 – كما هو معروف.[40]

وحينما رأت بريطانيا بعيد الحرب العالمية الثانية، صعوبة الاستمرار في انتدابها على بيت المقدس لأسباب متنوعة منها الإرهاب اليهودي، والضغوط الأمريكية المتزايدة لصالح الصهيونية، أحالت مسألة حكم بيت المقدس إلى منظمة الأمم المتحدة التي عينت لجنة خاصة بها لتقدم توصياتها بشأن حل النزاع.[41] وكان مشروع الأغلبية القاضي بتقسيم بيت المقدس بين العرب واليهود، (حيث يعطي اليهود 56% من أرضها بناء على اقتراح اللجنة البقية للعرب، وإنشاء نظام دولي خاص بمدينة بيت المقدس، يديره مجلس الوصاية نيابة عن الأمم المتحدة) هو الذي فاز، بتاريخ 29 تشرين الثاني 1947، وذلك بموافقة 33 صوتا وامتناع 10 أعضاء من التصويت.[42]

وقد اتخذت الأمم المتحدة بعد ذلك عددا من القرارات لمنع تدهور الوضع ولتطبيق قرار 29 تشرين الثاني 1947، إلا أنها لم تنجح في تنفيذها، ومنها القرار رقم 187 في 6 أيار 1948 حيث أوصت بتعيين مندوب بلدي خاص لإدارة مدينة بيت المقدس،[43] الذي لم يستطع القيام بمهامه أيضا على الرغم من تعيينه.[44] كما قررت في 14 أيار 1948 تعيين الكونت برنادوت كوسيط لضمان سلامة سكان بيت المقدس وحماية الأماكن المقدسة، وقد اغتالته العصابات الصهيونية في نفس العام.[45]

عند إعلان بريطانيا اعتزامها الانسحاب من بيت المقدس يوم 14 أيار 1948، يمكن القول بأن المرحلة التنفيذية الثالثة لتهويد مدينة بيت المقدس قد بدأت بشكل عملي: لقد بدأت المنظمات الإرهابية

الصهيونية مع إعلان قيام الدولة الصهيونية، في تصعيد حرب الإبادة وممارسة أعمال القتل والنهب والتدمير وإيقاع الرعب في نفوس العرب وحملهم على الفرار، لتسيطر على الأرض خالية من السكان.

وفي هذا الإطار قامت بارتكاب عدد من المجازر لعل أبرزها مجزرة دير ياسين[46] التي تبعد حوالي 1.5 ميل غرب مدينة بيت المقدس، وذلك في نيسان 1948. وقد وصف دي رينيه رئيس بعثة الصليب الأحمر الدولي في بيت المقدس هذه المجزرة آنذاك وبعد أن تمكن من الوصول إلى القرية لمشاهدة آثار الجريمة في تقرير مفصل، جاء فيه:

"وقع ثلاثمائة شخص ضحية للذبح والتنكيل... دون سبب عسكري أو استفزازي، ذبح الشيوخ والنساء والأطفال والرضع بوحشية على أيدي الجنود اليهود من منظمة الأراغون الذين استخدموا القنابل اليدوية والسكاكين لتنفيذ جريمتهم، وذلك بقيادة وتوجيه رؤسائهم...".[47]

وللتأكد من أن المذبحة حققت الهدف المرسوم لإرهاب السكان العرب، قام أفراد قوات الأراغون بعرض القلة الناجين من سكان دير ياسين ومن بينهم بعض النساء، في ثلاث شاحنات عبر شوارع مدينة بيت المقدس كجائزة لنصرهم العسكري.[48]

مثلت هذه المذبحة والممارسات الصهيونية الإرهابية جزءا من خطة مرسومة بدقة للاستيلاء على بيت المقدس ومدينته بشكل خاص، في الأيام الأخيرة من عمر الانتداب. فقد قامت القوات اليهودية بالاستيلاء على الجزء الغربي من مدينة بيت المقدس في الوقت الذي كانت ما تزال القوات البريطانية والمندوب السامي موجودين فيها، حيث استولت على حيّين عربيين هما حي القطمون في 25 نيسان، وحي الشيخ جراح 30 نيسان 1948، واجتاحت الأحياء العربية الأخرى في مدينة بيت المقدس (الجديدة) في 14 و15 أيار، مكملة بذلك احتلال معظم أحيائها الجديدة قبل اليوم الذي أعلن فيه دخول الجيوش العربية لبيت المقدس في 15 أيار 1948.[49]

وصف هاري ليفين (Harry Levin) وهو مراسل لإحدى الصحف اليهودية، أحداث معارك مدينة بيت المقدس التي جرت يوم 15 أيار، حيث راقبها من المستشفى الايطالي، كما يلي:

"على مقربة مني كان أحد مكبرات الصوت ينادي باللغة العربية: الهاغانا تتحدث إلى السكان العرب المدنيين وتحثهم على مغادرة المنطقة قبل الساعة الخامسة والربع صباحا. ارحموا زوجاتكم وأطفالكم وابتعدوا عن حمام الدم هذا. استسلموا لنا وسلموا أسلحتكم ولن يصيبكم أذى أو اخرجوا عن طريق أريحا، فهي ما تزال مفتوحة أمامكم. وإذا بقيتم فستتعرضون لكارثة".[50]

وهكذا سقطت أجمل أحياء مدينة بيت المقدس الغربية، حيث كان ثلثا سكانها من العرب يسكنون هناك، وكانت معظم أجزائه ملكا لهم. وقد استباحته العصابات الصهيونية وقتلت من بقي فيه من العرب واستولت على بيوتهم وممتلكاتهم وأحلت المستوطنين الصهاينة مكانهم.

بلغت مساحة الأرض في مدينة بيت المقدس إبان فترة الانتداب رغم محاولات التهويد سابقة الذكر، كالتالي، علما بأن مساحة مدينة بيت المقدس (القديمة والجديدة) بلغت حوالي 20133 دونم منها 19331 في المدينة الجديدة، و800 في المدينة القديمة، وحسب الملكية:

%40	أملاك عربية
%12.26	أملاك يهودية
% 13.68	أملاك الطوائف المسيحية
%2.9	أملاك حكومية وبلديات
%17.12 [51]	طرق وسكك حديد
% 14.04	أخرى
%100	المجموع

بعد اجتياح القوات اليهودية للأحياء العربية في مدينة بيت المقدس الجديدة، قامت بمهاجمة أحياء المدينة القديمة، بهدف الوصول إلى الحي اليهودي فيها والاستيلاء عليها بالكامل، إلا أن مناعة أسوار مدينة بيت المقدس القديمة التي بناها السلطان سليمان القانوني سنة 1542، وبسالة المدافعين عنها أفشل الهجمات الصهيونية.

وقد حافظ الجيش الأردني الذي دخل مدينة بيت المقدس يوم 18 أيار 1948 على المدينة القديمة، حيث أعلنت الحكومة الأردنية في رسالة الأمم المتحدة: "أن حقيقة الأمر بهذا الصدد هي أن الجيش الأردني وصل إلى مدينة القدس (بيت المقدس) يوم 18 أيار 1948، أي بعد ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب، وذلك بناء على الإصرار الشديد ومناشدة المواطنين العرب المحاصرين من أجل إنقاذ الجزء البسيط المتبقي من المدينة بأسرها، بعد أن خسروا الجزء الأكبر خارج الأسوار لصالح العصابات والقوات الاسرائيلية قبل وبعد انتهاء الانتداب..."[52].

وكانت القوات الصهيونية قد شنت آخر هجوم على المدينة القديمة في 17 تموز عام 1948، قبل يوم واحد من تنفيذ وقف إطلاق النار الذي أقرته الأمم المتحدة، ولكنه باء بالفشل بعد أن أخلت القوات الأردنية سكان الحي اليهودي في البلدة القديمة، الذين استسلموا في 28 أيار 1948. بعد ذلك

استمر الوضع العسكري في مدينة بيت المقدس ساكنا، وتم تجميده بموجب اتفاقية الهدنة التي أبرمت بين اسرائيل والأردن في 3 نيسان 1949.

وهكذا أبقت الهدنة الجديدة احتلال اسرائيل لمدينة بيت المقدس الجديدة بما في ذلك اثنا عشر حيا من بين خمسة عشر حيا سكانيا عربيا خاليا من سكانه، وهي: القطمون، والمصرارة، والطالبية، والبقعة العليا، والبقعة السفلى، المستعمرات اليونانية والألمانية والشيخ جراح، ودير أبو طور، ومأمن الله، والنبي داود، والشيخ بدر.[53]

أعلنت الدولة اليهودية آنذاك، عن إلحاق مدينة بيت المقدس بها رغم القرارات الخاصة بتدويلها (قرار 29 نوفمبر 1947)، حيث أعلنتها في 23 كانون الثاني 1950 عاصمة للدولة اليهودية، وبدأت الوزارات الاسرائيلية بالانتقال إليها ابتداء من عام 1951. كما سنت مجموعة من القوانين والتشريعات التي تمكنها من الاستيلاء على الأملاك العربية المتبقية بها، متحايلة بذلك على قرارات مجلس الأمن الدولي، وقرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي رفضت إجراءات تهويد المدينة المقدسة. أما على الصعيد الديموغرافي، فقد زاد عدد اليهود في مدينة بيت المقدس، ووصل عشية حرب حزيران 1967 إلى 196 ألف نسمة.[54]

الخاتمة:

أوضحت الدراسة الدور البريطاني في تهويد مدينة بيت المقدس، مبيّنة تاريخانية الأبعاد الدينية/ الثقافية الانجليزية التي تبلورت في بريطانيا البيوريتانية منذ القرن السابع عشر، حيث غدت مسألة "إعادة اليهود إلى البلاد المقدسة" جزءا راسخا في العقيدة والثقافة الشعبية لديهم. كما عرضت الدراسة لاستمرارية هذا النهج البريطاني بعد الثورة الصناعية، حيث ارتدت القوى الاستعمارية الأوربية – وعلى رأسها بريطانيا، أقنعة أخلاقية ودينية /ثقافية لتبرير عدوانيتها لاصطياد المستعمرات، وفي تغلغلها الديني والثقافي في بيت المقدس متنافسة مع القوى الاستعمارية الأوربية الأخرى، ومتحالفة مع حركة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني للسيطرة على البلد المقدس، انطلاقا من تلك الأفكار والمبادئ التي كانت راسخة في وجدانهم الانجليكاني/البروتستانتي – الذي يعرف بـ: "الصهيونية المسيحية".

أما خلال فترة احتلالها المباشر لبيت المقدس قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى عام 1948، فقد أوضحت الدراسة كيف عملت بريطانيا على تنفيذ تهويد بيت المقدس ومدينته – محط اهتمامنا بوجه خاص، على المستويات كافة، وخاصة السياسية/القانونية المتمثلة "بالشرعية الدولية" آنذاك، عبر انتدابها على بيت المقدس، ومستخدمة أدواتها كافة، بما فيها قوتها العسكرية والسياسية.

الهوامش

[1] لمعرفة المزيد حول الصهيونية المسيحية، أنظر: الشريف، ريجينا، 1985، *الصهيونية غير اليهودية*، ترجمة أحمد عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة عدد 96.

[2] المسيري، عبد الوهاب: 1999، *موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية*، القاهرة ط1، ج3، ص16.

[3] العباسي، نظام، 1992، *فلسطين والبرنامج الصهيوني*، اربد ط1، ص37.

[4] المسيري، مرجع سابق، ص17.

[5] العباسي، مرجع سابق.

[6] المرجع السابق، ص 40.

[7] كما فعل جون تراسك واتباعه خلال القرن السابع عشر، وتمثلت قمة مجد البيوريتانية في حكمهم بريطانيا حوالي منتصف القرن 17 وخاصة في عهد اوليفر كروميول – رئيس الكومنولث البريطاني آنذاك (1658–1649). للمزيد، أنظر،

Sykes, Christopher, 1953, *Two Studies in Virtue*, London pp. 53 -55

[8] للمزيد، انظر، المسيري، مرجع سابق، ص 17–24.

[9] العباسي، مرجع سابق، ص 41.

[10] بدعوة من بريطانيا تم عقد هذا المؤتمر للدول الأوربية العظمى آنذاك، تقرر خلاله طرد محمد علي باشا من بلاد الشام.

[11] للمزيد حول سياسة بريطانيا التغلغلية في فلسطين خلال القرن 19، انظر،

Mejcher, H. and Schölch, A. (Hersg.) 1981, *Die Palastina-Frage 1917–1948*, Paderborn. p. 9 -46

أيضا: العباسي، نظام، 1984، *السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية 1918 – 1948*، دار هشام / اربد ط1، ص15–34.

[12] كانت بريطانيا اول دولة أوروبية تقيم بعثة دبلوماسية بمستوى قنصلية في مدينة بيت المقدس عام 1838. أنظر: Mejcher, H., المرجع السابق ص 75.

[13] النتشة، رفيق شاكر، 1984، *الاستعمار وفلسطين*، دار الجليل، عمان، ط1 ص184.

[14] من رسالة بالمرستون/ وزير خارجية بريطانيا آنذاك الى القنصل البريطاني في استنبول بتاريخ 10 آب 1840، نقلا عن المرجع السابق، ص 185.

[15] من رسالة بالمرستون للسفير البريطاني في استنبول بتاريخ شباط 1841، المرجع السابق.

[16] للمزيد حول هذه الشعارات والرؤى، أنظر، شولش، الكزندر، *تحولات جذرية في فلسطين 1856–1882*، نقله عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، 1988، ص 81–86.

[17] لمعرفة المزيد حول المستوطنات الألمانية، والمعروف باسم Schwabische Templer أنظر:

- Carmel, Alex, 1978, *Die Siedlungen der wuttembergischen Templer in Palastina 1868–1918*, Stuttgart.
- Cramer, Valmar, 1950, *Ein Jahrhundert deutscher – Katolischer Palastinamission 1855–1955*, Koln.
- محافظة، علي، 1981، *العلاقات الالمانية – الفلسطينية 1841 – 1945*، بيروت.
- العباسي، نظام، 1984، *العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرير العربي 1933– 1945*، كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1 ص24–26.

[18] شولش، مصدر سابق، ص 90.

[19] The Israel Yearbook 1950-51, Tel Aviv, Israel Publications 1952, p. 81

ويناقش الباحث الألماني الكزندر شولش في الجزء الأول من كتابه: تحولات جذرية في فلسطين / مسألة عدد سكان بيت المقدس خلال النصف الثاني من القرن 19، باستفاضة وتفصيل متميز لا نجده بغيره من الدراسات، ليصل الى نتيجة مفادها بأن عددهم الاجمالي قد بلغ في مطلع ثمانينات القرن التاسع عشر 470 ألف نسمه – عدى سكان بدو جنوب بيت المقدس. أنظر، شولش، مصدر سابق، ص 55.

[20] بالإضافة الى الخليل ونابلس حيث عاشت هناك طائفتان يهوديتان صغيرتا العدد، المرجع السابق، ص92.

[21] المقصود بذلك اليهود الذين عاشوا بفلسطين قبل قيام الحركة الصهيونية وبدأ هجرة اليهود المنظمة اليها، والمجددة زمنيا قبل عام 1882، حيث أصبح يطلق عليهم أسم اليشوف اليهودي، أو اليشوف القدم، وذلك تمييزا لهم عن اليشوف الجديد، وهم المهاجرين اليهود الى فلسطين بعد عام 1882 وحتى عام 1948. انظر، الحوت، بيان نويهض، 1991، *فلسطين (القضية والشعب والحضارة)*، بيروت ص 385.

[22] حول أنشطة هذه الجمعيات، أنظر العباسي، *السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية*، ص 20–30.

[23] جريس، سمير، 1981، *القدس (المخططات الصهيونية، الاحتلال التهويد)*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1 بيروت، ص19.

[24] وهو موسى مونتيفوري (1784 – 1885) ثري بريطاني يهودي، كرّس جهوده لما كان مرتبطا بأوضاع اليهود، وكان مؤيدا ورياديا داعما لحركة الاستيطان اليهودي في بيت المقدس.

[25] جريس، المرجع السابق، ص20–22.

[26] حول موقع مدينة بيت المقدس وطوبوغرافيتها – تاريخيا، أنظر الموسوعة الفلسطينية، 1984، المجلد الثالث من القسم الثاني، ط1، ص508 – 509.

[27] الجنرال ادموند اللنبي (1861–1936) عسكري بريطاني محترف، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى ودخل مدينة بيت المقدس منتصرا بتاريخ 12/11/ 1917.

[28] العباسي، نظام، 1995، عروبة القدس عبر العصور التاريخية، في: *بحوث الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي- في إطار الحوار الإسلامي المسيحي)*، الرباط 19–21 أكتوبر 1993، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) سلا (المغرب)، ص113.

[29] أنظر، جريس، مرجع سابق، ص22، لقد حاولت سلطات الاحتلال البريطاني منذ احتلالها القدس تشكيل مجلس بلدي يتألف من اثنين من المسلمين واثنين من المسيحيين، واثنين من اليهود، أحدهما نائبا للرئيس.

[30] آرثر جيمس بلفور، وزير خارجية بريطانيا، والذي أعطى هذا الوعد/ الالتزام الحكومي البريطاني على شكل رسالة الى اللورد روتشلد – زعيم الحركة الصهيونية البريطانية آنذاك. للمزيد، أنظر:

- Jeffries, J.M.M. 1969, *The Balfour-Deklaration*, Beirut

أيضا، حول أسبابه ودوافعه، أنظر: قاسم، عبد الستار، 2002، *الموجز في القضية الفلسطينية*، المكتبة الجامعية، نابلس ص42 – 49.

[31] كثرة هي الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، انظر مثلا:

- خلة، كامل محمود، 1974، *فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1939*، بيروت.
- طربين، أحمد، 1971، *فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار*، القاهرة.
- Al-Hamui, Mamun ,1943, *Die britische Palaestina politik*, Berlin.
- Cohen, Michael J. 1972, British Strategy at the Palestine Question 1936-1939, in: *Journal of Contemporary History*, pp. 157-189.

[32] امتدت فترة حكم هربرت صموئيل، الانجليزي الصهيوني المعروف، حتى عام 1925، للمزيد، أنظر:

Hyman, S. Cecil, 1973, Under British rule in Jerusalem, Keter publishing House, Jerusalem.

[33] أنظر: شكري، محمد عزيز، 1980، البعد الدولي للقضية الفلسطينية، في: *الموسوعة الفلسطينية*، القسم الثاني ج6، بيروت ط1، ص13–14.

[34] أعلن مشروع صك الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الامم بتاريخ 6 يوليو 1921، وصودق عليه في 24 يوليو1922، ووضع موضوع التنفيذ في 29 سبتمبر 1923. أنظر النص الكامل مترجما الى العربية في: ظاهر، أحمد، والزعبي، محمود، 1985، *بين المكرين العربي والصهيوني*، دار ابن رشد، عمان، ط1، الملحق ص199–208.

[35] كتن، هنري، 1989، *القدس الشريف*، نقله الى العربية نور الدين كتانة، عمان ط1، ص66.

[36] كثيرة هي الدراسات التي تناولت حركة المقاومة العربية في فلسطين خلال عهد الانتداب، أنظر مثلا:

- الكيالي، عبد الوهاب (جمع وتصنيف)، 1968، *وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية 1918–1939*، بيروت.
- الكيالي، عبد الوهاب، 1973، *تاريخ فلسطين الحديث*، بيروت ط2.
- حسين، حماد (جمع وتصنيف)، 2003، *مجموعة وثائق حول تاريخ فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني*، جنين ط1.

[37] أنظر تقرير لجنة شو، 1968، تحت عنوان: *الحق العربي في حائط المبكى في القدس / تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم عام 1930*، بيروت، وسلسلة الوثائق الأساسية–4. حول أحداث البراق 1929، أنظر أيضا، العباسي، *السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية*، الفصل الخامس ص93–101.

[38] حول بدايات وتطورات الثورة في فلسطين آنذاك، هناك دراسات كثيرة، أنظر مثلا، يوميات أكرم زعيتر، 1980، *الحركة الوطنية الفلسطينية 1935–1939*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ط1، والذي يتحدث وثائقيا وبالتفصيل عن تطورات الأوضاع في بيت المقدس خلال تلك الفترة التاريخية –وقد كان أكرم زعيتر أحد المشاركين القادة في احداثها. قارن أيضا، *الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936–1939، الرواية الإسرائيلية الرسمية*، ترجمه عن العبرية، أحمد خليفة، ومراجعة سمير جبّور، مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجامعة الكويت، بيروت، ط1، 1989.

[39] عبد الهادي، مهدي، 1992، *المسألة الفلسطينية – مشاريع الحلول السياسية 1934 – 1974*، بيروت، ط4، ص 43.

[40] حول عملية نسف مقر حكومة الانتداب على يد المنظمات الارهابية الصهيونية بتاريخ 12 /7/1946 وتفصيلاتها، أنظر، محارب، عبد الحفيظ، 1981، *هاغانا، إتسل، ليحي (العلاقات بين التنظيمات الصهيونية المسلحة 1927 – 1948)*، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ط1، ص 250 – 260.

[41] للمزيد حول قرار تقسيم فلسطين آنذاك، أنظر، طربين، أحمد، 1990، فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، في: *الموسوعة الفلسطينية*، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت ط1، ص 1080 – 1086. أيضا، علي، فلاح خالد، 1980، فلسطين والانتداب البريطاني 1939–1948، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، ص 256–260.

[42] حول نص القرار، أنظر:

Die VN-Resolutionen zum Nahost-Konflikt, 1978, Aus dem englischen ubersitzt vom Arnold Harttung, Berliner Verlgm, Berlin, p.25.

43 أنظر نص القرار، في المصدر السابق، ص65 .

44 أنظر نص القرار، في: المصدر السابق، ص67 – 65 .

45 عينته الامم المتحدة وسيطا بتاريخ 14 ايار 1947، واغتالته العصابات الصهيونية في ايلول من نفس العام. للمزيد حول الكونت برنادوت، أنظر الموقع الإلكتروني: http://www.palestineremembered.com/Gaza/al-Faluja/Story9350.html

46 حول هذه المجزرة، أنظر، محارب، مرجع سابق، ص245-246. أيضا، الموقع الإلكتروني http://www.nakba.ps/massacre-details.php?id

47 كتن، مرجع سابق، ص 81.

48 المرجع السابق، ص 82.

49 للمزيد حول معارك القدس آنذاك، أنظر، الروسان، ممدوح، 2001، القدس في عهدي الاحتلال والانتداب البريطانيين 1917–1948، في: *القدس عبر العصور*، تحرير علي محافظة، مطبعة جامعة اليرموك، جامعة اليرموك، ص322 –332.

50 نقلا عن، كتن، مرجع سابق، ص 87-88.

51 جريس، مرجع سابق، ص 35.

52 كتن، مرجع سابق ص 91.

53 كتن، مرجع سابق، ص 94؛ قارن، الروسان، مرجع سابق ص 329 – 332.

54 جريس، مرجع سابق، ص 51.